

سلطة النص الديني على التدين

ط / د . بن علي موهود

أ / د . بوسعادة رشيد

جامعة الجزائر 02

الملخص :

التدين من المظاهر التي نراها في واقعنا الاجتماعي اليومي ، والتي تختلف مظاهرها من فرد لآخر، وكذلك شكلها. إلا أن المصدر واحد هو الدين ، والدين وضع إلهي تشريعي في نصوص مقدسة منزلة ومحفوظة في كتب لا يمسه إلا العارفون بها ، تخاطب الاتقياء ، والمتلمسين للنور في ظلماء الواقع بغية الوصول إلى الحقيقة اللاهية و التقرب منها. فتنفرد مستويات الفهم والتأويل عند هؤلاء ، وترسم صورا صافية وأخرى ضبابية للمتدينين . فنتشكل لدينا إستفهامات وتسؤلات عن هذا التفاوت و الاختلاف في الفهم والشكل. قد نرجع ذلك إلى مستوى الفهم والادراك ، وقد يرجع ذلك إلى تأويل المصدر التشريعي أي النص الديني ، أو إلى التنكر والإندساس في فئة المتدنية لمثارب دنيوية..

إن الفاعل المتدين يستخدم الخطاب الغيبي للدين لإمداد سيادته الأرضية في السياسة والاجتماع بعوامل القوة والتفعيل والتسديد. وليست بالضرورة ان يكون هذا الفاعل متديناً في قرارة نفسه. المهم أن يبلغ المرسل إليه ما ينبغي فعله. إن التدين هو رؤية كونية يجب أن يتغذى ويتعدد بتعدد منابعه وإضاءته من النصوص الدينية ، وتلك هي سلطة النص التي ترسم حدود ومساحة التدين لتحديد الوقوع في شرك المطلقات وهي في تناطح الآراء ومطارحات الفكر لم تتحرر بعد من ولع الالتصاق بأحرف النص لتتعم بملامسة روحه لاسيما في موضوع تحديد الصلة بين الفكر والواقع .

الكلمات المفتاحية : النص الديني ، التدين ، السلطة .

الملخص باللغة الإنجليزية:

Piousness is one of the most facts that we see in our social life . It differs from one to another,even in its shape , though the source is one which is religion.

Religion is a legislative god status in holy text inspired and learnt in bibles . They are touched only by people aware of it .It is founded for religious people who are seeking for light in their dark life, to reach godness and be closer to it .

Here it emerges variance in understanding and guessing , at the same time it draws clear and foggy pictures to wavering people. We form questions and interrogatives about this difference in shape and knowledge . It can be a lack of understanding or to the legislative sources , or mas querading for secular goals.

The pious uses metaphysical speech to reinforce his lordship .He try to do his work by strange effects , to communicate the others .Piousness is universal , it must feed from religious texts . It vary from variant sources and this is the target text , which draws the boundries of piousness.In the other hand , it doesn't liberated from defining the relation ship between reason and real life.

مقدمة :

يختلف مفهوم الدين حسب فهم الأفراد وحسب توجهاتهم وايدولوجياتهم ، نتج هذا الاختلاق من خلال تأويلات النصوص الدينية ، وأنعكست هذه المفاهيم والتأويلات على الممارسة الدينية ، حيث أن الممارسة الدينية متنوعة حسب التصور الإنساني للدين وانفتاحه عليه، قد يحمل هذا التصور بعض السلبيات الناتجة من الخطأ في الفهم أو القصد ، أو الانحراف في الحركة، أو التخلف في الوعي، أو التعصب في الانتماء، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج سلبية في غير

صالح المجتمع، ولعلّ هذا هو السبب في المشاكل المعقدة التي عاشت في الماضي والحاضر في الخلافات الطائفية، والحروب الدينية، والحساسيات المذهبية، والناس الذين عاشوا في هذا الواقع، لم يأخذوا بالرحابة الدينية في آفاق القيم الروحية والأخلاقية، كما يُخطئ أفراد المجتمع في تقييمهم للتدين بشكل عام، هذا التقييم الذي يشترك فيه الجميع؛ المجتمع والفرد، فالمجتمع أصبح يعطي لبعض السلوكيات الإيمانية دلالات أكبر مما تنتجها في الواقع، الأمر الذي من الممكن أن يستغله ضعاف النفوس، مما يرى نفسه أنه وصل إلى مسمى داعية، دون أن يمتلك المقومات الحقيقية لذلك، مما يتطلب أخذ الدين من نبعه الصافي ، ألا وهو النص الديني كما أنزل، ومن الفهم الناتج عن تفسير السنة له في الدين الإسلامي كمثال .

يتميز الدين الإسلامي بتعدد مستوياته والتي يرقى فيها الإنسان من مستوى إلى آخر في خط تصاعدي كلما اجتهد في فهم وتطبيق هذا الدين ، وهذه المستويات هي الإسلام والإيمان والإحسان . فالعمل أو الممارسة أو المعاناة أو التجربة التي تعكس تفاعلا حقيقيا بين الإنسان وبين القيم والقواعد والأخلاق الإسلامية ، ليس مجرد تبنيها على مستوى الكلام أو مستوى الخطاب أو مستوى الشكل الخارجي، وكأننا نصنع لأنفسنا صورة تسويقية أو ترويجية، وإنما العبرة في العمل وفي الممارسة وفي التطبيق، وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى «يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» سورة الصف الأيتين 2و3، هذا أمر مكروه وليس

مجرد الكراهية فقط بل أعلى درجاتها وأكبرها¹. كما أن اختلاف الشرائع الدينية في بعض التشريعات مرتبط بعالم النسخ الذي قد يحصل في الشريعة الواحدة أيضاً، لارتباط حكم سابق بعوامل خاصة يزول الحكم بزوالها.. ولهذا فإن كل الأديان السماوية، كما جاء بها الأنبياء تدل على معنى واحد، فإن كان الدين تفسيراً فهي ذات تفسير واحد، ولا يدل اختلاف بعض التشريعات على اختلاف التفسير².

إن إفراط وتفریط الناس في التدين ،أحدث اختلافاً خطيراً في الدين، كما أن لجهلهم دوراً آخر في هذا الاختلاف، فاختلقت التفسيرات، فمُنشأ الاختلاف ليس دينياً، ولا سماوياً، ولا من الأنبياء أو الرسل، بل من البشر أنفسهم.³ أليس هذا ما يمكن فهمه من قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» سورة البقرة الآية 213.

وإذا كان النص الديني يحتمل معاني وقراءات عدة وفق المناهج المتبعة وحدود اللغة وظروف الزمان والمكان والبيئة المحيطة بالإنسان، وهذا ما كان عليه الحال طوال التاريخ الإسلامي، فإن تجدد وتغير فهم النصوص وتطبيقها سيتواصل عبر التطور الإنساني واختلاف المجتمعات والحضارات⁴. ففي هذه المقالة سأحاول إجلاء الوضوح حول قضية تأثير النص الديني على التدين .

1 – النص الديني :

هو الكتاب المقدس، يُعرف أيضاً باسم النص المقدس، الأمر المقدس والسفر المقدس. تُعتبر هذه الكتب نصوصاً مقدسة في كثير من الأديان والتي تراها متمحورة حول عقيدة الدين ذاته⁵. تؤمن غالبية الأديان والحركات الروحانية بأن كتبها المقدسة لها أصل إلهي أو قوى ماوراء الطبيعة والتي تم إنزالها أو وحيها بطريقة ما⁶. وأن معظم الديانات تسن سياسات صارمة لتحديد حدود نصوصها المقدسة، وتقوم بالتحكم أو النهي عن التغييرات والإضافات. تعرض غالبية الأديان نصوصها المقدسة على أنها "كلمة الله"⁷، وفي كثير من الأحيان تعتبر أن النصوص هي مستوحاة من الله وعلى هذا النحو لأمجال لإنسان أن يقوم بالتغيير أبداً فيها.

1 – 2 – تعريف النص الديني :

إن المقصود بالنص الديني هنا، هو النص المرتبط بالدين على المستوى الإيماني والعقدي، التوراة بالنسبة إلى اليهود، والإنجيل بالنسبة إلى المسيحيين، والقرآن الكريم والسنة النبوية بالنسبة إلى المسلمين، وهي نصوص يرجعون إليها في مسائلهم المرتبطة بعقيدتهم وسلوكهم وإيمانهم، وهذه النصوص لها إطارها المقدس في نفوسهم⁸.

1 – 2 – النص الديني عند المسلمين

القرآن الكريم : كلمة "قرآن" من المصدر "قرأ"، "يقرأ"، "قراءة"، و"قرآنا" وأصله من "القرء" بمعنى الجمع والضم، يُقال: «قرأت الماء في الحوض»، بمعنى جمعه فيه، يُقال: «ما قرأت الناقة جنيئاً»، أي لم يضمّ رحمها ولد. وسمى القرآن قرآناً لأنه يجمع الآيات

والسور ويضم بعضها إلى بعض⁹. وروي عن الشافعي أنه كان يقول: «القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت، ولكنه اسم لكتاب الله»¹⁰. وقال الفراء: «هو مشتق من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً وهي قرائن»¹¹.

وأما تعريف القرآن اصطلاحاً فقد تعددت آراء العلماء فيه وذلك بسبب تعدد الزوايا التي ينظر العلماء منها إلى القرآن، فقول: «القرآن هو كلام الله العزيز والنص الإلهي المنزل بواسطة الوحي على رسول الإسلام وخاتم النبيين محمد بن عبد الله بلغة العرب ولهجة قریش، المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته المعجز ولو بسورة منه، وهو المعجزة الإلهية الخالدة التي زود الله تعالى بها رسوله المصطفى وهو الميراث الإلهي العظيم والمصدر الأول للعقيدة والشرعية الإسلاميتين»¹². وبعضهم يزيد على هذا التعريف قيوداً أخرى مثل: «المعجز أو المتحدي بأقصر سورة منه أو المتعبد بتلاوته أو الاسم لمجموع ما هو موجود بين دفتي المصحف أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس». والواقع أن التعريف الأول تعريف جامع مانع لا يحتاج إلى زيادة قيد آخر، وكل من زاد عليه قيداً أو قيوداً لا يقصد بذلك إلا زيادة الإيضاح بذكر بعض خصائص القرآن التي يتميز بها عما عداه¹³.

النص الثاني هو السنة ، والسنة في اللغة :هي السيرة، والطريق القويم، وقد وردت في القرآن الكريم بمعنى الطريقة المتبعة: "سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" -

يتصف بالتعدد ، حيث يمكن التمييز بين نمطين أساسيين للتدين احدهما ايجابي والاخر سلبي ، والاخير اى التدين السلبي ليس مرجعه الإسلام كدين ، بل هو محصله عوامل نفسيه واجتماعيه وتربويه وسياسيه واقتصاديه وثقافيه...متفاعلة، مرتبطة بالشروط الذاتية كشيوع التقليد وظهور البدع. والموضوعية كالاستبداد و الاستعمار لتخلف النمو الحضاري للمجتمعات المسلمة، هذا التمييز يشمل الأبعاد المتعددة للتدين¹⁷. والدين أهم أساس من أسس الحياة الدنيا للإنسان بحيث لا يمكن أن يستغني عنه بحال من الأحوال، وعندما يغفل الإنسان الدين في أي جانب من جوانب الحياة تجد هذا الجانب ينحرف عن تحقيق أهدافه التي يجب أن يحققها في هذه الحياة الدنيا.

3 – سلطة النص الديني وأثرها على التدين :

لتوضيح الفرق بين الدين كرسالة معيارية تمثل النص الديني في مساره العمودي، وهو أسرع مؤثر في الأخلاق، ولا يُدانيه في ذلك أي مؤثر آخر. وفي هذا الشأن يذهب علماء التربية إلى أن قاعدة السلوك الخلقي لا تقوى على البقاء دونما تأييد من الدين. فالنص الديني سلطة قوية لتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس في ضوء مشيئة قُوى فوق بشرية، والدين هو الحافظ الأول للأخلاق منذ العصور التاريخية الأولى أيام كانت الأخلاق والقانون والعادات والدين كلاً واحداً لا يتجزأ، وكان الدين هو التنظيم الاجتماعي الوحيد الذي يسود الحياة الاجتماعية ويُنسّقها. إضافة إلى ذلك ينبغي ألا يغيب عن بالنا جملة الوظائف الانتمائية التي ينهض بها الدين، من حيث إنه

سورة الإسراء و "قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" - سورة الأنفال. وكلمة السنة إذا أطلقت فهي تتصرف إلى الطريقة المحمودة، وقد تستعمل في الطريقة المذمومة ولكنها تكون مقيدة.

أما السنة إصطلاحاً : الحديث والسنة يجتمعان في مواضع، ويفترقان في مواضع أخرى، فإن ما يروى عن النبي من قول أو فعل أو تقرير يطلق عليه "حديث" كما يسمى أيضا "سنة"¹⁴.

يقول الشيخ عبد الله بن يوسف الجديع: «السنة في المعنى الأصولي مساوية للحديث بالتعريف المتقدم عن أهل الحديث، دون قيد (أو صفة)، واستثناء الصفة النبوية من جملة السنن إنما وقع من أجل أن محل الكلام في السنة هو اعتبار كونها من مصادر التشريع، وهذا لا يندرج تحته الأوصاف الذاتية، وإنما يستفاد من الأقوال والأفعال والتقارير النبوية»¹⁵.

2 – التدين : هو التمسك بعقيدة معينة ، يلتزمها الإنسان في سلوكه ، فلا يؤمن إلا بها ، ولا يخضع إلا لها ، ولا يأخذ إلا بتعاليمها ، ولا يحيد عن سننها وهداياها¹⁶. ويتفاوت الناس في ذلك قوة وضعفا ، حتى إذا ما بلغ الضعف غايته ، عد ذلك خروجاً عن الدين وتمرداً عليه . والتدين هو تفاعل الإنسان مع الدين، وهو عملية فيها قدر من المعاناة والتأمل والتجارب، وليس مجرد أن ينطلق فوراً إلى حالة التدين عبر الالتزام برموز شكلية، وإن كانت تلك الأمور الشكلية تبدو مهمة.

وإذا كان الدين كوضع الهي يتصف بالوحدة على مستوى أصوله، فإن التدين ككسب بشرى

أيضا خصائص وهي معروفة في الجملة؛ ومضامينها هي مجموعة القضايا الحاوية للحقائق التكوينية والتعاليم التشريعية (التكليفية منها والتحسينية)، ولكلّ منهما أيضاً خصائص؛ وموضوعات قضايا هذه النصوص متنوعة كما تُعلم، ولكلّ منها خصائص. ولخصائص كلّ من المبادئ الخمسة المذكورة دور ووظيفة في توليد و تنسيق قواعد فهم النص وضوابطه، فعلي المفسر والمستنبط تخريجها وتنسيقها كجهاز معرفي منطقي واستخدام هذا الجهاز في فهم تلك النصوص.

إن النص عندما يتعرض للاستتطاق يصبح "مفهوما"، فيتحرك وتتعدد دلالاته، مما ينزع عنه ثباته، ويعرضه للتحويل، إلى درجة الاضطراب أحيانا في غياب شروط حقيقية للتواصل/التأويل، المتمثلة في التجربة الحقيقية والمعرفة العميقة. وهنا يتحدد مجال التواصل الذاتي، ويتم تأطير التأويل كآلية تواصلية، ويستبعد بذلك، المعيار اللساني لوحده أن يستحوذ على العملية هاته، باعتباره لا يستوفي أبعادها، ولا يسبر أغوارها ما دام يهدر البعد الرمزي للتجربة الدينية، كما عبر عنها قديما الفخر الرازي بقوله "ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي"²⁰. وهذا من مجمل ما وقع فيه الخطاب النقدي للنص الديني لا بوصفه ذاتا (شعور/وتاريخ)، وإنما بوصفه نص لغوي محض، يتمتع بسلطة ما.

وإلى مثل هذا المعنى ينزع محمد أركون الذي يرى أن مهمة النص الديني ليست تكمن في أنه قدّم للإنسان التفسيرات والإيضاحات فحسب؛ وإنما أيضاً في أنه أمده بالأجوبة العملية القابلة

يجيب عن تساؤلات الإنسان التي ما انفكت تُورّقه، وتجتاح كيانه وتملاً نفسه رغبةً وحيرةً، وبخاصة تلك الوجودية المتعلقة بمصيره وعاقبته.

ومنه فوظيفة النص الديني الرئيسة كما يرى البعض أنه يجعل الحياة مُستساغةً وممكنة، بمعنى أنه لا يعمل على إيجاد التوافق وخلق مُصالحة بيننا وبين العالمين الدنيا والاخرة.

«والأهمُّ أنه يجيب عن الأسئلة المصيرية الوجودية التي تتعلق بمآل الإنسان، من مثل: مَنْ أنا؟ من أين جئت، ولماذا؟ إلى أين أنا سائر، وإلّا أنا صائر؟.. إلخ. فهذه الـ "لمادات" لا تجذُّ لها أجوبة شافية، تُسكّن من روع الإنسان وتزوّدُه بقوة مهولة يركنُ إليها في تقبل هُومومه وغُومومه، إلا في الدين. ومن ثمّ فلا بدّ أن كان لفظُ "الأمن" و"الأمان" و"الإيمان" من جذرٍ لغوي واحد¹⁸.

إنّ ادراك كل نص مرهونٌ بملاحظة العوامل المؤثرة على ظاهرة الدلالة والتفهم، من قبيل أخصائص الماتن .

ب — خصائص مخاطب النص

ج — خصائص مضامين النص.

د — خصائص موضوع او موضوعات محمولات القضايا التي تشكل النص.

هـ — العناصر المؤلفة لهويته الارتباطية الدلالية وهي التي تُشكل بنية لغته¹⁹.

فنفقول: مبدأ النصوص الدينية (وهي الكتاب والسنة) هو البارئ الرب — جلّ و علا— مباشرة وغير مباشرة، وله ولوسائله الإبلاغية (الرسول والولي، ومصادر المعرفة الأخرى) خصائص؛ ومخاطبها هو الإنسان، وله

للتطبيق فيما يخص علاقته بالوجود والمحيط الفيزيقي وحتى الميتافيزيقي»²¹.

إن القول بالتدين ليس من مختصات القائل بالتعددية، بل الذي يرفض التعددية يقر بالتجربة الدينية، ويعتبرها هي الأساس في ظهور الأديان والأنبياء، ولن تكون التجربة الدينية كافية في شيء من ذلك. لكن القائل بالتعددية يقع في مغالطات وتناقضات عديدة، فهناك تناقض بين اعتبار قوام الحقيقة بالتجربة، وبين حاجة التجربة إلى تفسير، حتى تظهر وتعرف ويتنبه لها صاحب التجربة.

وفي الحقيقة فإن البحث عن التدين لن تكون له أي قيمة إذا لم يحدد مسبقاً ما هي الحقيقة الدينية، أو ما هي حقيقة الدين وجوهره. البعض يرى جوهر الدين قائم في تجربة عرفانية، وأن التجارب العرفانية المتنوعة هي في الحقيقة أمر واحد، وتمايزها إنما يكون في مرحلة التفسير، أما التجربة الخام العارية عن التفسير فهي موجودة وتعبر عن جوهر كافة التجارب العرفانية.

بعد ذلك كله نقول: إن التدين ليست حقيقة الدين، بل التدين هو الذي يدعوا إلى وجود الدين، لأن التدين لوحده لا يكفي للوصول الإنسان إلى سعادته، ووصوله إلى ربه، فكان من الضروري أن يتجلى الله تعالى لعباده الذين يستشعرون وجوده بوجدانهم وفطرتهم²². وإنما كان لا بد من تجليه لهم حتى يعرفهم ما يريد، وكيف يمكنهم أن يصلوا إليه، لأن التجربة الفردية لوحدها لا تتكفل بذلك، بل قد يختلط الأمر على العبد بين الوهم والحقيقة، ولهذا نجد أن مسار العرفان مسار خطير ربما أودى بالإنسان إلى

الوقوع في أحضان الشيطان، وهو يظن أنه في أحضان الله تعالى .

فليس النص الديني مجرد تفسير للتجربة فهذا خطأ جوهرى وكبير، بل هو استجابة إلهية للتجربة الدينية، فالعبد في لقائه الوجداني مع الله تعالى يطلب الوصول إليه، يسأل الله كيف، فيأتيه الجواب عبر النص والرسول، بعد أن كان ليس بإمكان العباد أن يحصل لهم التواصل الكافي الذي يعرفهم بما يريده الله تعالى²³. وهذا يعني أنه لا يمكن الاستغناء عن النصوص الدينية في الهداية والنجاة، لأنه الضامن لاستمرارية التجربة الدينية بما يوصلها إلى الهدف.

فالعلاقة بين النص والتدين علاقة في الصميم لا مجال للتدين أن يصل إلى العبد إن لم يعش تجربة دينية ما، ولا مجال للتجربة أن تتجح في إيصال العبد إلى الهدف من دون نص ديني. وبهذا تكون العلاقة في الصميم أيضاً بين المعتقدات والمعارف والشرعية وبين التجربة. فالشرعية بواجباتها وآدابها، تحدد السلوك الدخيل في تصحيح التجربة فلا ينحرف، و المعتقدات دخيلة أيضاً في التوجيه نحو الهدف وبدونها يضل الطريق.

إن أساس الحضارة هو ذلك الحوار بين الإنسان والنص، "فالأمر محصور بين رب وعبد يقول محي الدين بن عربي، فللرب طريق و للعبد طريق، فالعبد طريق الرب فالإله غاية، و الربّ طريق العبد فالإله غاية. " الأصل مرتبط بـ "فعل" القراءة. اقرأ قال الله لنبيه محمد والأخذ بها أكثر من ضرورة. وإنما هنا نتجاوز معناها السطحي ذلك المرتبط بالقول أنها مجرد سياق إضافي خارجي يضاف إلى النص.

إن الأمر غير ذلك. فالقراءة فعل سحري بسيط يلغي المادة المكتوبة ليتمكن من روح النص، و تسمع صوته، إنها بمثابة عملية تقوم بفك الشفرات ، وكشف الأسرار، وتعزية الرموز²⁴. ولا يمكن لأي نص أن يكون نصاً إلا بفعل القراءة.. وآلية القراءة التي ستعرف تطبيقاتها الصارمة مباشرة على النص. كثير من الإلتباسات التي أدت إلى الانحراف بالنص عن وظيفته الدينية، وهي تغذية التدين وإمدادها بوسائل النمو، المرتبط بتحديد طبيعة النص و تصور الغاية منه. ففي الاسلام القرآن ليس كتاب تشريع، ولا كتاب تاريخ، ولا كتاب فلسفة، وإن احتوى على عناصر تشريعية وتاريخية وفلسفية وغيرها، بل هو أساساً كهوية ووظيفة، "كتاب هداية"، له دور توجيهي تربوي معرفي، يبين سبيل المؤمن في سعيه نحو الله. ولكن هذا النور ليس بديلاً عن السبيل، ولا عن المؤمن، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون بديلاً عن التجربة الدينية، عن شعور المؤمن، بشكل شخصي ومباشر، بحضور الله في حياته وفي الوجود، وهذا هو عمق التدين وحقيقته.

إن النص الديني قد يكون ثابتاً في خطوطه العقيدية والشرعية، ولكنه متحرك في فاعليته الاجتماعية على مستوى واقع التطبيق العملي في الاستقامة والانحراف، فهو يدعو إلى التغيير الداخلي للوصول إلى التغيير الخارجي، بحيث يدفع الإنسان إلى ثورة وتغيير للداخل الذي يتمثل في فكره وخطه العملي، ويدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حركة الواقع الخارجي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقد جاء في آية أخرى أن هاتين النقطتين تمثلان أساس القيمة في الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وعلى ضوء ذلك، لا يمكن أن تصدق القيمة الماركسيّة حول الدين كأفيون للشعوب، وكمجموعة من المنظومات القيمية التي تمنع الصراع البناء، وتقوم بإحباط التجديد والثورة، لأننا نرى أن الدين يمثل عنصراً حركياً فاعلاً في الثورة على الظلم في الداخل، وعلى الاستكبار في الخارج، كفضية عميقة الصلة بالالتزام الديني، حتى إن القيمة الدينية ترى في الحياد بين العدل والظلم، وبين المستكبرين والمستضعفين، قيمة سلبية، فالساكت عن الحق هو شيطان أخرس، وتري في الالتزام بقضايا الحق والعدل قيمة إيجابية: "كن للظالم خصماً وللمظلومين عوناً".²⁵

إن النص الديني يضع الضوابط الاجتماعية التي تعمل على إدارة الأمر بطريقة إنسانية واقعية، بحيث تندفع إلى معالجة المشاكل الطارئة في نطاق الفرد والمجتمع، ليبقى التوازن العام في حركة القيم التي يختزنها الجميع في معنى الإيمان، ويتحركون من خلالها في معنى المسؤولية، فيلتقي الوازع الداخلي بالوازع الخارجي في إقامة القاعدة العامة الضابطة للواقع كله، في حدود الإمكانيات الواقعية للانضباط الإنساني.

إنّ للدين نوعاً من التركيز على وعي الإنسان لنفسه في تاريخ الوجود منذ بداية خلقه، فليس

المسألة في ابتعاده عن الانحراف مسألة مصلحة شخصية أو حالة طارئة، بل هي مسألة ضمير ديني يتغذى من القيم التي تجعل من سلامة علاقته بالآخر وسيلة من وسائل سلامة مصيره عند الله، لتكون في مستوى الأهمية الكبرى في حركة وجوده.

ويبقى النص الديني للحرية الفردية والاجتماعية في المسألة الدينية دورها الفاعل في الاجتماع الإنساني، من خلال المبدأ الديني الإنساني الذي يؤكد أن لا سلطة لإنسان على إنسان إلا من خلال الحقوق التي قررها الله للإنسان في علاقته بالإنسان الآخر، أو من خلال التزامات الإنسان المقطوعة على نفسه بما يشبه التعاقد، مما يلزم به نفسه مع الله أو الإنسان الآخر، بحيث يخضع الفرد والمجتمع لقاعدة عقيدية للواقع كله، تؤكد أن للفرد حقاً على الفرد والمجتمع، وأن للمجتمع حقاً على الفرد في كل القضايا الحيوية التي تنظم فيها الأوضاع الفردية والاجتماعية في الحقوق أو الواجبات، بحيث لا يتحرك الواقع من حالة اهتزاز، بل من حالة ثبات والتزام. هذه هي الإيجابيات في الفاعلية الدينية.

قائمة المراجع :

- فراس السواح؛ دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني؛ دار علاء الدين؛ دمشق، ط2، دون تاريخ؛ ص65.¹

²- أبو هلال العسكري؛ كتاب الفروق؛ طرابلس، لبنان؛ ط1، 1994؛ ص241.

³- محمد عبده؛ الإسلام بين العلم والمدنية؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ دون تاريخ؛ ص71.

⁴ - عبد الجبار الرفاعي، قضايا إسلامية معاصرة، مركز دراسات فلسفية، بغداد، 2011، ص43.

هو شيئاً ضائعاً حائراً في ضبابية وجوده، بل هو وجود يملك تاريخاً ممتداً في الماضي، فهو جزء من مسيرة إنسانية كبرى تؤثر فيه، وتصنع له ذاكرة تاريخية تحدد له إرثه الإنساني منها، وهو بعد ذلك يصنع تاريخاً جديداً من خلال جهده، عن طريق المستقبل الذي يصنع قاعدته وجذوره وأبعاده وامتداداته في مسؤوليته عن صنع التاريخ الجديد للحياة في الثقافة والسياسة والاقتصاد والحركة الواقعية على مستوى الأهداف والتطلعات.

وعلى ضوء هذا، فإن النص الديني من خلال التدين يحدد للإنسان وظائفه الفكرية والعملية، بحيث يستشعر بأنه جزء من النظام الكوني في وجوده الذي يقف بحساب ويتحرك بحساب، في وعيه لنفسه ولغيره وللحياة من حوله، وفي الترابط الوجودي بالإنسان الآخر في القضايا التي تتوقف عليها المسؤوليات الاجتماعية.

الخاتمة :

ومن خلال هذا العرض، نخرج بنتيجة عملية، وهي شمولية دور النص الديني الفاعل في الاجتماع الإنساني، لجميع نواحي الحياة في النشاط الإنساني؛ في السياسة والاقتصاد والاجتماع، من ناحية علاقة هذه العناوين بالقيم الروحية والأخلاقية والمعايير الإنسانية والوظائف الاجتماعية، باعتبار أن الإيمان بالله في وعي الإنسان لمسؤوليته أمامه، يمتد في حياة الإنسان في علاقته بنفسه وبالآخرين في مختلف القضايا الحيوية، ما يوحي بأن الإحساس الديني يفتح على الآخر في كل القضايا الحيوية المتصلة بسلوكه معه، من موقع خوفه من الله ومحبه ومسؤوليته أمامه، فليست

- ¹⁹ - نور الدين خليل، ناموس الأديان الكبرى الثلاث، مؤسسة حورس الدولية مصر، الإسكندرية، 2010. ص 401 .
- ²⁰ صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم ، المرجع السابق، ص 54 .
- ²¹ نور الدين خليل، ناموس الأديان الكبرى الثلاث، المرجع السابق ، ص 401 .
- ²² صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم ، المرجع السابق، ص 54 .
- ²³ نور الدين خليل، ناموس الأديان الكبرى الثلاث، المرجع السابق. ص 403 .
- ²⁴ - محمد عبده؛ رسالة التوحيد؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت، ط1، 1986؛ ص 48.
- ²⁵ - مصطفى عبدالرازق؛ الدين والوحي والإسلام؛ مكتبة الشباب-الهيئة العامة لقصور الثقافة؛ ط2؛ 1997؛ دون مكان الطبع، ص 12.
- ⁵ - عبد الجبار الرفاعي ،علم الكلام الجديد جدل العلم والدين، نفس المصدر السابق ،ص 320 .
- ⁶ - محمد عبده؛ الإسلام بين العلم والمدنية؛ مرجع سابق ص 71.
- ⁷ - بو زيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي، 1997. ص 190.
- ⁸ - عبد الجبار الرفاعي ،قضايا إسلامية معاصرة، مرجع سابق ص 43.
- ⁹ - أبو زيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة ، مرجع سابق ، ص 212
- ¹⁰ - عبد الجبار الرفاعي ، علم الكلام الجديد جدل العلم والدين ،المرجع السابق ، ص 123.
- ¹¹ - أبو زيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة ، المرجع السابق ، ص 160.
- ¹² - عبد الجبار الرفاعي ، علم الكلام الجديد جدل العلم والدين ،المرجع السابق ، ص 223.
- ¹³ - عماد علي عبد السميع حسين، الأصولية الإسلامية والأصوليات الأخرى، دار الحكمة ،بيروت ، لبنان ص 170.
- ¹⁴ - أبوزيد نصر حامد.،فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي، ط4، المركز الثقافي العربي، 1998. ص 27.
- ¹⁵ أبوزيد نصر حامد.،فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي، ط4، المركز الثقافي العربي
- ¹⁶ - أبو زيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة ، مرجع سابق ، ص 150 .
- ¹⁷ - أبو زيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة ، مرجع سابق ، ص 150 .
- ¹⁸ - صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي، الدوحة ، قطر، 2007 ، ص 54 .